



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان 2019/10/13

السنة الثانية عشرة - العدد: 4425

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

من أصعب ما يواجه الطبيب النفسي أن يعالج "أصحاب المبادئ الثابتة"، ليس مهما أن تكون المبادئ سليمة، أو صحيحة، أو أصح، ولكن الصعوبة تأتي من أنها ثابتة، والمتابع لقراءاتي في مواقف ومخاطبات مولانا نفرى وحوارى معه - في موقعى كل ثلاثاء - (2) وهو يعلمنا خطورة العلم المستقر، وأيضا خطورة الجهل المستقر، لابد أن يكون قد بلغته خطورة هذا الاستقرار الجائم على حركية نمونا، "إليه"، الجائم بالعلم أو بالجهل فما بالك بالفكر المستقر، والنظرية المستقرة التى هى مرادفة للأيديولوجيا.

إن ما يهمنا هنا هو ذلك الإنسان المريض الذى جاء يعانى لأنه قد سبق له أن تورط - بوعى أو بغير وعى - فى تقديس مبادئ ثابتة بقوة التاريخ، أو النقل، أو الترهيب أو الترغيب أو "أى تقديس" لأية منظومة مستقرة، ثم نكتشف أن هذه المبادئ قد استعملها صاحبنا كدفاعات يتماسك بها حتى راحت تحمى تماسكه الشخصى بنجاح ذاتى محدود، كآلية دفاعية ثابتة أو متكررة أساسا، أكثر منها كموقف أو كمذهب عام قابل للاختبار سعيا إلى إقامة العدل وتحريك التطور على أرض الواقع لكل الناس؟ هذا الشخص كان، غالبا وما زال، يستعمل الأيديولوجيا تماما كما يستعمل شخص متدين الدين المؤسسى، ليس لتسهيل رحلته إلى الإيمان كدحا إلى وجه الحق، وإنما يستعمله ليستقر فى موقعه بعيدا عن حركية نموه التى هى موازية - غالبا - لما أسماه كارل يونج: تجربة الرب، هنا يصبح الدين آلية دفاعية Mechanism تماما مثلما تصبح الأيديولوجية الاشتراكية المغلقة آلية دفاعية، وطالما نجحت هذه الآلية هنا أو هناك من قبل أن يمرض صاحبها، أو دون أن يمرض أصلا فليس للطب النفسى ولا العلاج النفسى حق حتى فى مجرد نقدها فى ذاتها، إنما ينشأ الإشكال حين يأتى صاحب هذه الآلية (فى الدين الجامد أو الأيديولوجى المقدسة)، ويعانى نفسيا، فيجد الطبيب نفسه مضطرا إلى التلميح أن هذه الآلية التى قامت بالواجب فيما قبل المرض، معرضة للفحص والنقد وإعادة النظر أثناء العلاج، مثل أية آلية أخرى.

هنا يقفز عامل آخر، وهو ما ألمحنا إليه فى مواقع كثيرة. هذا العامل هو: ماذا عن

من أصعب ما يواجه الطبيب النفسي أن يعالج "أصحاب المبادئ الثابتة"، ليس مهما أن تكون المبادئ سليمة، أو صحيحة، أو أصح، ولكن الصعوبة تأتي من أنها ثابتة

المتابع لقراءاتي فى مواقعى ومخاطبات مولانا نفرى وحوارى معه وهو يعلمنا خطورة العلم المستقر وأيضا خطورة الجهل المستقر

لابد أن يكون قد بلغته خطورة هذا الاستقرار الجائم على حركية نمونا، "إليه"، الجائم بالعلم أو بالجهل فما بالك بالفكر المستقر، والنظرية المستقرة التى هى مرادفة للأيديولوجيا

ما يهمنا هنا هو ذلك الإنسان المريض الذى جاء يعانى لأنه قد سبق له أن تورط - بوعى أو بغير وعى - فى تقديس مبادئ ثابتة بقوة التاريخ، أو النقل، أو الترهيب أو الترغيب أو "أى تقديس" لأية منظومة مستقرة

نكتشف أن هذه المبادئ قد استعملها صاحبنا كدفاعات يتماسك بها حتى راحت تحمى تماسكه الشخصى بنجاح ذاتى محدود، كآلية دفاعية ثابتة

أو متكررة أساسا، أكثر منها كموقف أو كمنهج عام قابل للاختبار سعيا إلى إقامة العدل وتحريك التطور على أرض الواقع لكل الناس؟

يستعمل الأيديولوجيا تماما كما يستعمل شخص متدين الدين المؤسسي، ليس لتسهيل رحلته إلى الإيمان كدعا إلى وجه الحق، وإنما يستعمله ليستقر في موقفه بعيدا عن حركة نموه

هنا يصبح الدين آلية دفاعية Mechanism تماما مثلما تصبح الأيديولوجية الاشتراكية المغلقة آلية دفاعية

ماذا عن أيديولوجية المعالج نفسه؟ وكيف يمكن أن تكون عاملا فاعلا بعلمه أو بغير علمه في مسيرة العلاج؟

هل يمكن أن يزعم المعالج أنه محايد في حين أن داخله قد يحكم على أيديولوجية مريضه بالزيف أو بالفشل أو بالعبث أو بالاعتراض أو بغير ذلك؟

في أغلب البلاد المتقدمة يتجنب هذا الحرج حين يمتنع الطبيب - بنفسه أو بالعرف أو بالقانون - أن يسأل مريضه عن دينه أو عن توجهه السياسي

أتساءل عن موقعي الشخصي من هذا المذهب السياسي أو ذلك، وأيضا عن موقعي من هذا النوع من التدين أو ذلك

هي قضية تتحد حين أواجه بمريض صاحب مذهب واضح محدد، أو صاحب أسلوب في التدين راسخ جامد ثم يأتي يسألني النصح، فيقفز لي خاطر - وأنا متردد - أنه لو كان على صواب في مذهبه هذا أو في طريقة تدينه، لما

أيديولوجية المعالج نفسه؟ وكيف يمكن أن تكون عاملا فاعلا بعلمه أو بغير علمه في مسيرة العلاج؟ وهل يمكن أن يزعم المعالج أنه محايد في حين أن داخله قد يحكم على أيديولوجية مريضه بالزيف أو بالفشل أو بالعبث أو بالاعتراض أو بغير ذلك؟

في أغلب البلاد المتقدمة يتجنب هذا الحرج حين يمتنع الطبيب - بنفسه أو بالعرف أو بالقانون - أن يسأل مريضه عن دينه أو عن توجهه السياسي، وكأن مجرد تجهيل هذه المنطقة عند المريض، مع تصور الطبيب أنه أخفاها أيضا بالنسبة لنفسه (إيش أدراه؟) يمكن أن يصبح العلاج أكثر موضوعية، طبعا هذا كلام يحتاج للمناقشة (3) إذن ما العمل؟

ليس عندي اهتمام مباشر بالعمل السياسي، وإن كنت سياسيا رغم أنفي - مثل أي شخص يعيش في مجتمع تنظّمه سلطة ما: تدير أمور ناس مختلفين، ليحققوا تعاوننا جماعيا في اتجاه ما - تقفز لي هذه القضية بشكل شخصي حين اضطر، ولو بيني وبين نفسي: أن أتساءل عن موقعي الشخصي من هذا المذهب السياسي أو ذلك، وأيضا عن موقعي من هذا النوع من التدين أو ذلك، وهي قضية تتحد حين أواجه بمريض صاحب مذهب واضح محدد، أو صاحب أسلوب في التدين راسخ جامد ثم يأتي يسألني النصح، فيقفز لي خاطر - وأنا متردد - أنه لو كان على صواب في مذهبه هذا أو في طريقة تدينه، لما جاء يستشيرني - وهكذا أسأل نفسي بشكل مباشر أو غير مباشر أين مذهبه مما حدث له، وأين أنا من هذا المذهب؟

لا يجوز أن يجرى الأمر كذلك، وفي هذه الحالة (حين أضبط نفسي متلبسا بهذا الموقف)، أتصور أنني كان يمكن أن أعفي نفسي من هذا الحرج بأن أدعي الحياد، لكنني عادة لا أستطيع فأقدم خطوة لأعامل هذا الموقف الأيديولوجي الجامد أو طريقة التدين المستقرة بلا حراك، أعامل هذا أو ذلك باعتباره ميكانزم معرض للاهتزاز مثل أي ميكانزم، وهكذا تبعد القضية عن مناقشة المحتوى (مضمون الأيديولوجي، أو مضمون طريقة التدين) إلى العمل على إنجاز أي منهما كما كان ناجحا في الحفاظ على تماسك صاحب أيهما متوازنا غير مريض، وقد اضطر اضطرارا إلى فتح باب إعادة النظر في محتوى تدينه إذا ثبت أنه عامل معوق لاستعادة توازنه فصحتة أملا في إطلاق مسيرة نموه، وهو نفس ما نلجأ إليه في التعامل مع أي ميكانزم.

هناك بُعد آخر ينبغى وضعه في الاعتبار بشأن مثل هذا المريض، قبل وبعد تعلقه بمنظومته الدفاعية: أيديولوجية حديثه كانت أو دينها، ذلك أن بعض هؤلاء المرضى الذين يحضرون للعلاج يعلنون أن ما ألمّ بهم من مرض أو إعاقة إنما يرجع إلى تدهور قيم المجتمع عامة، والظلم السائد فيه، والاعتراض الغالب عليه، والبعد عن المبادئ السليمة، التي هي مبادئهم جدا، وكذا وكيت، وكأن الحل ليس في أن يشفوا هم، حتى يستطيعوا أن يواصلوا تغيير ما يعترضون عليه بالثورة أو الإبداع أو الإصلاح أو أي دور يرتضونه، بل إن بعضهم يلح على الطبيب أن يفهم أنه لن ينصلح حال مرضه، ولن يشفى إلا إذا انصلح حال المجتمع، وكأنه بذلك يبلغ الطبيب ضمنا أن مهمته - حتى يشفيه - هي أن يُصلح حال المجتمع، ويقيم العدل، وربما يعيد توزيع الأرزاق،

مريض، ولما جاء يستشيرني

أتصور أنني كان يمكن أن
أحفى نفسي من هذا الجرح
بأن أدعى العياد، لكنني
عادة لا أستطيع

قد أضطر اضطرارا إلى فتح
باب إعادة النظر في محتوى
تقديسه إذا ثبت أنه عامل
معوق لاستعادة توازنه فصته
أمل في إطلاق مسيرة نموه،
وهو نفس ما نلجأ إليه في
التعامل مع أي ميكنازم.

أن بعض هؤلاء المرضى الذين
يحضرون للعلاج يعلنون أن ما
ألم بهم من مرض أو إعاقة إنما
يرجع إلى تدوير قيم المجتمع
عامة، والظلم السائد فيه،
والانتماء الغالب عليه، والبعث
عن المبادئ السليمة، التي هي
مبادئهم جدا، وكذا وكثير

كأن الحل ليس في أن يشفوا
هم، حتى يستطيعوا أن يواصلوا
تغيير ما يعترضون عليه بالثورة
أو الإبداع أو الإصلاح أو أي
دور يرتضونه، بل إن بعضهم
يلج على الطبيب أن يفهم أنه
لن ينصلح حال مرضه، ولن
يشفي إلا إذا انصلح حال
المجتمع

في كثير من هذه الحالات
لاحظت كيف تحل المناقاة
بالمبادئ المثالية، سماوية
كانت أم أرضية، محل الحياة
الواقعية اليومية

أن أكثر أفراد العلاج
المتربا عن التفاعل النشط في
“هنا” و“الآن” هم الجاهزون
بهذه الأفيشات البراقة

حين كنت أصر أن أجد
بعضهم إلى “اللحظة الراهنة”،
كان الواحد منهم يكاد يطلق
عدوانه بلا هوادة احتجاجا
على “رجعيتي”، وقد يشك في
محاولة تحسيلي لمخه لأخاع منه

طبعاً المريض لا يقول هذا بالألفاظ، ولكنه يحيل أية معاناة إلى مثل هذه الأسباب ويلقيها في
وجه الطبيب وينتظر.

في كثير من هذه الحالات لاحظت كيف تحل المناقاة بالمبادئ المثالية، سماوية كانت أم
أرضية، محل الحياة الواقعية اليومية، وفي خبرتي تبدو المبادئ التقدمية أو الاشتراكية أو
اليسارية أكثر إغراء من غيرها، فكنت كثيرا ما أتبين أن المناقاة بهذه المبادئ بكل هذا الحماس،
وبكل هذا الكلام، في الموقف العلاجي، يكاد يكون نوعاً من إعلان ضمنى بعدم الالتزام
بالمشاركة في تحقيقها، وبرغم ذلك، فقد لاحظت من بعض أصحاب هذه المبادئ أنهم أحيانا
يحضرون وعندهم تصور عن أيديولوجية أو دين المعالج (من مقال قرأوه للمعالج، أو حديث
سمعوه منه، أو شاهدوه في التلفاز أو خبر تناقلوه... إلخ)، وحين يكتشف الواحد منهم أن المعالج
ليس كما تصور (ليس اشتراكيا، ليس مستشخا، ليس مثاليا... إلخ) تهتز ثقته به إن وجده لا
يتفق مع توجهه، وقد يتراجع، أو قد يواصل متحديا تنويريا مرشدا أحيانا، أمراً بالمعروف ناهياً عن
المنكر أحيانا أخرى، وما لم يأخذ المعالج حذره بأن المسألة العلاجية قد تتقلب إلى مناقشات
سياسية أو اقتصادية أو فقهية، تضع معالم المهمة العلاجية، وتبتهت محكات قياس التقدم في
العلاج.

لاحظت في العلاج الجمعي بوجه خاص أن أكثر أفراد العلاج اغتراباً عن التفاعل النشط في
“هنا” و“الآن” هم الجاهزون بهذه الأفيشات البراقة، وحين كنت أصر أن أجد بعضهم إلى
“اللحظة الراهنة”، كان الواحد منهم يكاد يطلق عدوانه بلا هوادة احتجاجاً على “رجعيتي”، وقد
يشك في محاولة غسيلي لمخه لأخاع عنه أيديولوجيته.. الخ” وبالتالي قد يتردد في وضع الثقة،
أو حتى في استمرار العلاج احتجاجاً على بعدى عن التعاليم المقدسة (أيديولوجيا أو دينيا) التي
يؤمن هو بها..، وقد يشترك مريض أو أكثر - خاصة في العلاج الجمعي - في نفس الأيديولوجيا
(من قبل أن يحضروا العلاج أو أثناء فترة العلاج)، وهنا يدعم دفاع أحدهما الآخر فتظهر ظاهرة
التزواج Pairing التي وصفها بيون Bion كإحدى الافتراضات الأساسية Basic Assumption
في العلاج الجمعي.

وكما يستغرق الشخص الرأسمالي في جمع المال، ويكتمل اغترابه حين ينسى أن هذا المال
ليس إلا وسيلة لتحقيق فرص أوسع لحركية نموه، وإطلاق حيويته، وتأمين وجوده.. ومن ثم
اكتساب حرية داخلية أملاً أن تعقبها فاعلية الإبداع والعطاء، كذلك فإن مثل هذا الشخص
“المبادئ كلاماً” قد يستغرق في تكريس الأفكار والمبادئ وتسلسل المنطق والدفاع النظري عن
أيديولوجيته ليحقق الانتصار “النقاشي”، فيكتمل اغترابه بالابتعاد المنظم عن ذاته وعن أرض
الواقع الفردي وعن مواجهة مشاكل الوجود الجماعي في نطاقها الحي، كل هذا قد يكون مقبولاً
ومفيداً في مجال آخر غير مجال العلاج، لكن متى ما احتاج الأمر إلى طلب المشورة والمساعدة
النفسية المهنية، بما في ذلك من إعلان اهتزاز هذه الحيلة الأيديولوجية الدفاعية، فإن الحسابات
تختلف، والمنهج يختلف، والمحكات تختلف.

أيديولوجيته.. الخ“

قد يتردد في وضع الثقة، أو حتى في استمرار العلاج احتجاجاً على بعدى عن التعاليم المقدسة (أيديولوجياً أو دينياً) التي يؤمن هو بها“..

مثل هذا الشخص “المبادئ كلاً ما“ قد يستغرق في تكريس الأفكار والمبادئ، وتسلسل المنطق والدفاع النظرى عن أيديولوجيته ليحقق الانتصار “النقاشى“، فيكتمل اختراجه

حاولت أن أسائل نفسي عن هذه السكينة الظاهرية التي يتحلى بها بعض أصحاب هذه الآراء ووجدتها أحياناً أقرب إلى الالامبالاة نتيجة “لتصور“

ما يكاد التغيير يعرض نفسه من خلال إحياء حركية الاختبار اليومي عبر المواجهة العلاجية حتى تبدأ وظيفة هذه الأفكار تتعري، ويلوح أمل في العودة إلى إطلاق حركية النمو

حاولت أن أسائل نفسي عن هذه السكينة الظاهرية التي يتحلى بها بعض أصحاب هذه الآراء ووجدتها أحياناً أقرب إلى الالامبالاة نتيجة “لتصور“ حل كل شيء بمجرد الحديث عنه .. أو إعلان أن “كذا هو الحل“ (سواء كان هذا الـ “كذا“ هو كلمة الإسلام – أو الديمقراطية – أو الاشتراكية – أو الثورة – أو التتوير .. الخ)، ليكن، ولكن الأمور لا بد أن تختلف حين تظهر أعراض المرض حيث قد تفرض المراجعة نفسها مع ظهور المرض أو أثناء العلاج .. وما يكاد التغيير يعرض نفسه من خلال إحياء حركية الاختبار اليومي عبر المواجهة العلاجية حتى تبدأ وظيفة هذه الأفكار تتعري، ويلوح أمل في العودة إلى إطلاق حركية النمو لمن يواصل فيغامر بمخاطرة الفحص فالنقد فالتغيير أو التطوير، بمواكبة المعالج الذى يواصل دوره العلاجي مع كل فرد على حده، وفي نفس الوقت مع المجموعة ككل وأيضا مع نفسه طول الوقت.

.....

ونكمل الأسبوع القادم عن “معالم الأيديولوجيا والحرية“، وإن كنت أفكر أن أنشر المتن الشعري، فهو من أقرب ما كتبت شعرا.

- [1] يحيى الرخاوى: الطب النفسى: بين الأيديولوجيا والتطور “منشورات جمعية الطب النفسى التطورى (2019)، والكتاب موجود فى الطبعة الورقية فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا حاليا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net

- [2] أنظر نشرات “حوار مع مولانا النفرى“ الأسبوعية بالموقع www.rakhawy.net

- [3] تناولناها فى موقع آخر: أنظر نشرة 2008/2/12 (“صعوبة الحيات وضرورته فى العلاج النفسى “والحياة “)

ارتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD131019.pdf>

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرفه شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطب النفساني، العراق / أمريكا)

على جائزتها للعام 2019 المنصدة للأعمال العلمية في الطب النفساني

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة واحترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفساني الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsynet.com/arabpsynet.php?p=2>